

بين العاطفة والتدين

د.محمد الحبر يوسف
داعية سوداني

يظن كثير من الناس أن جمود العاطفة وقسوة الطبع دليل على اكتمال الرجولة والدين ويتصورون أن المسلم الكامل رجل له قلب حديد لا يرق لفراق حبيب أو يبكي لموت عزيز
:وذلك على حد قول الآخر

إبيكي علينا ولا نبكي على أحد... .. لنحن أغلظ أكبادا من الإبل
وأذكر أن الوالد حفظه الله لما احتسب ابنته أميرة وهي بنت ثلاث بكاهها بكاء مرا فقالت له إحدى النساء حتى أنت يا فلان تبكي ، فقال قي
: مرثيته

قالت أتبكي يا فلان وما درت ... أن الفؤاد ممزق يتخذ
ماذا علي إذا بكيت وإنني ... لك يا (أميرة) واجم أستجد
ولقد بكيت وما اشتقيت وإنني ... بك يا (أميرة) واجد أتجد
أبدي التجلد تارة فيخونني جلديفأسفح عبرة تتوقد
إن قلت أصبر طالعتني بسمة من طيف وجهك بالبراءة تشهد
أو قلت أسلو يا (أميرة) زارنينعم تسامى في الهوا يتردد

والحق أن الشعور الرقيق والعاطفة الجياشة والحس المرهف خصال تنتعش في ظلال التدين الصحيح ، فعلاقة المسلم بربه لا تقوم إلا على عاطفة صادقة ومحبة خالصة (والذين آمنوا أشد حبا لله) (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين)
ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب (إليه مما سواهما) الحديث .

فالمسلم يتقرب إلى الله ويتودد إليه ويقف بساحته وهو مفعم بشعور المحبة لله والرغبة في طاعته ، بل لا يجد الصالحون أنسهم إلا في ذكر الله (وجعلت قرة عيني في الصلاة) وقد كان من أسلافنا من يقول إنه لتمر علي لحظات يرقص فيها قلبي طربا من ذكر الله فأقول لو أن (

أهل الجنة في مثل هذه الحال إنهم لفي عيش طيب) وربما انقلب هذا الطرب إلى حزن عميق وخرج وضيق إذا أحس هذا القلب المرهف بالتقصير في جنب الله (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله تواب رحيم) ويبلغ الشعور الرقيق مبلغا يحمل صاحبه على الحزن لا بسبب التقصير في حق الله ولكن بسبب العجز عن التنافس في طاعة الله (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون)

وإذا كانت العاطفة ترقق القلوب ، فإن العلم واتساع العقل لا يأتي -كما يتصور فريق من الناس - خصما على هذه العاطفة بل يزيد من نداوتها ، وقد حدثنا القرآن الكريم عن أثر المعرفة -سواء كان مصدرها الوحي أو الكون - على القلوب والمشاعر فقال سبحانه عن وفد أهل نجران وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع (مما عرفوا من الحق يقولون ربنا إنما فاكثبنا مع الشاهدين)
وقال
قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى (عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمعفولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا)

وفي سورة فاطر حديث عن آيات الله الكونية التي تورث المعرفة بهما القلوب خشية لله وخشوعا لعظمته ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس (والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء وهذه الآيات وأمثالها في القرآن تدل على أن الإيمان الصحيح يحول المعرفة في حس المسلم من قضية نظرية مجردة إلى شعور نفسي غامر يهلب العواطف ويحرك القلوب الذين يذكرون الله قياما وقعودا ويتفكرون في خلق السموات) (والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففتنا عذاب النار ومن هنا كان الدين قرين العاطفة فكلما زاد الدين في القلب ربت

العاطفة وأنبئت من كل زوج بهيج، أما قال النبي صلى الله عليه وسلم (أتاكم أهل اليمن أرق الناس أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانية)
؟ أما أعلمنا الله أن آية التدين الصحيح قلب يحنو على بئس ويرق ليتم ويرحم الأرملة والمسكين قال تعالى (أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين)

فالقلب الرحيم قريب من الله قريب من الناس (فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ولما كان قلب النبي صلى الله عليه وسلم أرحم القلوب وأبعدها عن الغلظة والفظاظة تعلقت النفوس بحبه وعمرت المجالس بذكره وسارت القصائد بمدحه، وقد نقلت لنا كتب السيرة مواقف حاشدة تجلت فيها آثار رحمة النبي صلى الله عليه وسلم الحانية وعاطفته المشبوبة التي وسعت الناس والطير والدواب فعن عبد الله بن مسعود قال (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق لحاجته فرأينا حمرة (طائر صغير) معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تفرش (تفررف بأجنحتها) فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال كنا في صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء قوم عراة مجتابي النمار (ثيابهم ممزقة) (متقلدي السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر، فتمعر) أي تغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال تصدق رجل من ديناره من درهمه من صاع بره من صاع تمره حتى قال بشق تمره فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه أن تعجز عنها بل قد عجزت ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مذهبة) الحديث رواه مسلم هذه هي العاطفة التي يبعثها الدين في القلوب، عاطفة ترى البؤس على الوجه فترق وترى الخير يتنزل فتتهش له و تتهلل، ولا تقف عاطفة المسلم عند حد المشاعر النفسية ولكن تتحول كما رأينا في الحديث إلى عمل إيجابي ينمى الخيـــــر ويـــــدفع البـــــؤس

وخلص القول أن العاطفة فطرة مركوزة في النفوس، فالإنسان بطبعه يحن ويألف ويرتبط بما حوله من أشياء وتعتلج في صدره المواقف والذكريات، والإسلام لا يتنكر لطبيعة الإنسان وفطرتة، ولا يحول بينه وبين التعبير الصحيح عن هذه العواطف وقد حزن نبينا صلى الله عليه وسلم لموت ولده إبراهيم وقال (إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع ولا نقول إلا ما يرضي الرب) وسمع عليه الصلاة والسلام وصف مكة من (أصيل) فجرى دمعه حنينا إليها وقال يا أصيل دع القلوب تقرر (

وكان بلال رضي الله عنه ينشد في المدينة - دار الهجرة- أبياتا يذكر فيها مكة ويعلن بصوت جهير شوقه إليها دون أن ينكر عليه أحد :
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة...بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة...وهل يبدون لي شامة وطفيل
هذا وفي دواوين العرب شعر كثير متعدد المنازع والمشارب ينبئ عن ذوق رفيع وعواطف جياشة وكان الأدب الإسلامي حاضرا في هذه الدواوين ولعل من جميل ما قرأته في كتاب صفحات من صبر العلماء للشيخ العلامة المحقق عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله أبيات لأبي علي القالي الإمام الذي أجاته الظروف إلى أن يبيع كتبه التي نسخها بيده فقال هذه المقطوعة التي تسيل رقة :

أنست بها عشرين حولا وبعثها...لقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها....ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصيبة...صغار عليه تستهل شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرتي...مقالة مكوي الفؤاد حزيني
قد تخرج الحاجات يا أم مالك.....كرائم من رب بهن ضنين

و للشاعر المسلم المعاصر عمر بهاء الدين الأميري قصيدة مطلعها
أين الضجيج العذب والشغب؟ ... أين التدارس شابه اللعب؟ (وفيها)
يصور سفر أولاده الصغار إلى حلب وما أثار في نفسه من عواطف فكان
: مَمَّا قَمَّال

دمعي الذي كتمته جلدا.... لما تباكوا عندما ركبوا
حتى إذا ساروا وقد نزعوا...من أضلعي قلبا بهم يجب
أفيتني كالطفل عاطفة....فإذا به كالغيث ينسكب
قد يعجب العذال من رجل...بيكي وإن لم أبك فالعجب
هيهات ما كل البكا خور...إني وبى عزم الرجال أب